

نظرة نقدية تحليلية في المصادر العربية والأجنبية عن الدولة العثمانية

(٢)

— بقلم الدكتور سيد رضوان علي

المصادر الأجنبية

أما المصادر والمراجع في اللغات الغربية المختلفة فلا تكاد تحصى، ولم يؤلف في تاريخ دولة من دول الاسلام كما ألف في تاريخ الدولة العثمانية في هذه اللغات قديماً وحديثاً، في اليونانية واللاتينية والالمانية والفرنسية والانجليزية والاسبانية والروسية والبولندية واللغات السلافية بأنواعها كالصربية والكرواتية وغيرهما . . . ولقد احصيت في اللغة الانجليزية وحدها اكثر من مائة كتاب عن هذه الدولة، من بداية القرن السابع عشر الى نهاية الحرب العالمية الاولى فقط (١) وأما الفرنسية فقد ألف فيها بين سنوات ١٤٨٠ - ١٦٠٩ فقط أكثر من ٨٠ كتاباً (٢) فما بال اللغات الأخرى . . !

والمصادر الاصيلية في تلك اللغات هي ما ألفه المؤرخون البيزنطيون واللاتين في الحقبة الاولى من تاريخ الدولة العثمانية، الى عهد تكوينها أو في القرن الخامس عشر و خاصة بعد سقوط القسطنطينية . . و على رأس هؤلاء الامبراطور البيزنطي

H. Bowen, British Contribution to Turkish Studies, 1945. (١)

P. Coles, The Ottoman Impact on Europe, p. 152 (٢)

كانتا كوزين الذى جلس على عرش بيزنطة بمساعدة العثمانيين، ثم اختلف معهم، ثم تنازل عن العرش وقضى حياته الاخيرة مترهباً، وألف مذكراته عن الحوادث السياسية لعهدده الى سنة ١٣٥٧، والمصدر الثانى المعاصر هو تاريخ نفقورس غريغورس (Nicephoras Gregoras) وكل واحد منهما تحدث عن الاتراك العثمانيين و بعض الاتراك الاخرين فى سواحل الاناضول الغربية الذين كانت تربطهم بالبيزنطيين رابطة الصداقة أو العداة. و فى مذكرات كانتا كوزين، حمى السلطان العثمانى الثانى أورخان بن عثمان، اشارات كثيرة عن اسوربك أمير ابارة ايدين واورخان، وثناء على الجيش التركى ونظمه واخلاصه، ولو أنه هاجم فيها الاسلام -

وتحدث فى القرن الخامس عشر، وخاصة بعد سقوط القسطنطينية كل من فرانزا (Phranza) ودوكاس (Ducas) وخالكو كوندليس (Chalcocondlys) من المؤرخين البيزنطيين عن السلطان محمد الثانى أو محمد الفاتح والاتراك العثمانيين، وبخلاف المؤرخين البيزنطيين المذكورين فى القرن الرابع عشر صب هؤلاء جام غضبهم على العثمانيين و على السلطان محمد الفاتح بصفة خاصة . . و على رأس هؤلاء جورج فرانزا الذى كان صديق الاسبراطور البيزنطى الاخير وأمين سره وأسر مع أهله بعد الفتح - ثم خرج من القسطنطينية بعد أن اطلق سراحه، وترهب وعاش فى جزيرة كورفو حيث أخذ فى كتابة التاريخ البيزنطى من ١٢٥٨ الى ١٤٧٦ - وأما دوكاس الذى ينتمى الى احدى الاسر الا سبراطورية فى بيزنطة فكان فى خدمة امير جزيرة اسبوس (Lesbos) وكان فى داخل الجزيرة عندما حاصرها العثمانيون سنة ١٤٦٢ ، وقد كتب تاريخه عن الدولة البيزنطية - و أما خالكو

كوندليس (١)، فكان من اصل رفيع في اثينا، وقد أسره العثمانيون مرتين في عهد السلطان مراد الثاني والد محمد الفاتح، ويتناول تاريخه حوادث سنوات ١٢٩٨ - ١٤٦٣ م - ويضاف الى هذه القائمة اسمان آخران وهما نيكولوباربرو (Nicolo Barboro) وهو نبيل بندقى كان في القسطنطينية عند حصارها من قبل السلطان محمد الفاتح - والكاردينال ايزودور (Isodor) الذى بعثه البابا الى القسطنطينية للقيام بتوحيد الكنيستين الشرقية واللاتينية، وهو الذى فاق في صب اللعنات على السلطان الفاتح الآخرين، وذكره بعد خروجه من القسطنطينية بقوله "عبد الشياطين وابن ابليس"، - ولا يرجو المرء فى كتابة هؤلاء عن العثمانيين الا كل ما هو شر و فظيح و كرية، اذكل واحد منهم اسير مقهور أو جريح موتور، وسقطت عاصمتهم، وعاصمة الدولة الرومانية الشرقية المسيحية على يد محمد الفاتح -

واذا لم يكن من الميسور لنا أن نطلع على كتاباتهم، فكفانا مؤونة هذا البحث والرياضة النفسية (حسب مصطلح الصوفية) لقراءة اتهاماتهم وشتائمهم المؤرخون الغربيون المتأخرون الذين استقوا اخبار العثمانيين عن هؤلاء وبنوا كتاباتهم على مؤلفاتهم، ومن بينهم اشهر مؤرخى الانجليز من القرن الثامن عشر (Edward Gibbon)، الذى اعتمد كل الاعتماد فيما كتبه عن العثمانيين فى كتابه "انحلال الدولة الرومانية وسقوطها"، (٢) The Decline and Fall of the

(١) رسم هذا الاسم فى كتاب السلطان محمد الفاتح للرشيدي (ص ١٢) خالكونديل (Chalcondyle) وهو غير صحيح - واستفدنا منه فى الملاحظات عن هؤلاء المؤرخين الثلاثة والذين بعدهما مباشرة . .

اما كاتتا كوزين و نثفوس غريغورس فقد اشار الى اثارهما كبن Gibbon فى تاريخه عن انحلال الدولة الرومانية وسقوطها -

(٢) ترجم هذا الكتاب مؤخرا الى اللغة العربية -

Roman Empire على الخمسة الاوائل من هؤلاء (غريغورس، كانتاكوزين، فرانزا، دوكاس، خالكو كوندليس) ولقد اثرت كتابات هؤلاء المؤرخين البيزنطيين القداسى تأثيرا قويا فى نفوس من كتب بعدهم من المؤرخين الغربيين حتى اليوم، ولم يستطع هؤلاء رغم اعتراف بعضهم مثل گبن وبيورى وفنلى وهامر بتعصب المؤرخين البيزنطيين واللاتين ضد العثمانيين، ولم يستطيعوا أن يتحرروا من هذا التعصب والتحاسل، بل منهم من فاق القداماء فى تعصبه مدفوعا بالنزعة الصليبية الاستعمارية الجديدة -

فى الانجليزية: وأقدم من كتب من الانجليز - فيما نعرف - عن تاريخ العثمانيين رتشارد نولس (Richard Knolles) فى كتابه "The General History of the Turks"، و طبع هذا الكتاب فى ١٦٠٣م، اى فى العصر الذى كان العثمانيون مازالوا أكبر قوة فى اوربا ومازالت فتوحهم تتوالى فيها، وفى البحر الابيض المتوسط، وكان المؤرخ شديد الاعجاب بقوة العثمانيين ونظمهم وعظمتهم - ثم ترجم اليها كتاب اسير افلاقى wallachian Prince ديمتريوس كانتمير (Demetrios Cantmir) من اللغة الاتينية بعنوان (The History of the Growth and Decay of the Ottman Empire) وانهى هذا المؤلف الذى كان يعرف اللغة التركية وتقاليد الاتراك العثمانيين كتابه الى ١٦٨٣م اى محاصرة العثمانيين الاخيرة الفاشلة لفيينا، وهو من المصادر الرئيسية للمؤرخ الانجليزى الشهير گبن (Gibbon) و طبع هذا الكتاب فى ١٧٣٤م الذى اعتبره مصدرا تركيا لاعتماد مؤلفه على بعض المراجع التركية -

وفى نهاية القرن الثامن عشر (١٨٨٧م) أصدر "Gibbon"، كتابه المعروف

عن الدولة الرومانية الشرقية "The Decline and Fall of the Roman Empire"، وبالرغم من أنه لم يؤلف عن الدولة العثمانية ولكنه ضم كتابه هذا فصولا عن العثمانيين منذ ظهورهم الى سقوط القسطنطينية (١٤٥٣م)، الفصول ٦٤، ٦٥، ٦٨، وهذا الفصل الاخير عن السلطان محمد الفاتح و حكمه و سقوط القسطنطينية - واعتمد "Gibbon"، فيما كتبه عن العثمانيين على المصادر البيزنطية المذكورة وبصفة خاصة على فرانزا و دوکاس وخالكو كوندليس المذكورين أنفا، فجاءت كتابته عنهم مشحونة بالتعصب الصليبي ضد العثمانيين، زد على ذلك النزعة الاستعمارية في نفس هذا المؤلف والتي ظهرت في اواخر هذا القرن لدى الانجليز بعد احتلالهم لاجزاء من الامبراطورية المغلية الاسلامية في الهند . . و گبن مسئول الى حد كبير عما شاع في الاوساط الانجليزية المثقفة العامة من أفكار خاطئة مشوهة عن العثمانيين، وخاصة عن السلطان محمد الفاتح -

وبما أنه لم يكن يعرف أية لغة شرقية فقد اعتمد على ما كان سيسورا من بعض الترجمات اللاتينية القليلة او الفرنسية لبعض المصادر الشرقية العربية والتركية والفارسية في القرن الثامن عشر . . و كان اعتماده من بين المصادر التركية على مرجع واحد فقط غير ذات قيمة كبيرة وهو تواريخ مجهولة لال عثمان (كتاب صغير) نشره Leunclavious في ١٥٥٠ مع تعليقاته وشروحه . . والكتاب الثاني هو تاريخ كانتمير المذكور اعلاه - ولكن لم يعجب گبن من هذا المؤلف الاجانب مظلمة من تاريخ العثمانيين ، أما الجوانب المشرقة فقد أهملها كما يتأكد من كلامه على مؤلف هذا الكتاب في بعض هوامش تاريخه -

ثم ظهر في القرن التاسع عشر و بداية هذا القرن عدد من الكتب بالانجليزية

كتواريخ بوتر (Sir J. Porter) و بيرز (E. Pears) سايكس (Mark Sykes) و جبنز (H. A. Gibbons) وايرسلي (Lord Eversley) وغيرهم -

ويستر عن اثنان من هذه الكتب انتباهنا، الاول هو تاريخ الاتراك العثمانيين بقلم السرادورد كريزي History of the Ottoman Turks, by Sir Edward Greasy

والثاني تركيا تأليف لين پول Turkey, by Stanlay Lane Poole

فأما الاول فميزته أن مؤلفه لخص فيه كتاب هامر الضخم المعروف عن الدولة العثمانية فصلا فصلا، كما أنه أضاف اليه شيئا من عنده، وهكذا أغنى بتأليفه القارى العادى من الرجوع الى كتاب هامر فى .- ١ مجلدات ضخام، وأوصل كتابه الى بداية عهد عبدالحميد الثانى، ولو أنه اقتضب فى تاريخ تلك الفترة اقتضابا شديدا، وطبع هذا الكتاب فى ١٨٧٨م - وأعدت مكتبة الخياط ببيروت طبعه مصورا فى ١٩٦١م -

اما الكتاب الثانى أى "تركيا"، تأليف لين پول فانه بقلم مستشرق انجلىزى عرف بمولفاته المفيدة الكثيرة عن مصر والشمال الافريقى والهند الاسلامية والسلالات الاسلامية الحاكمة وعاش فى مصر مدة، واشتغل فى المتحف البريطانى فى القسم العربى مدة طويلة، وهو يمتاز الى حد كبير بصفة الاعتدال، وكثيرا ما تتسم آراؤه وطريقة عرضه للتاريخ العثمانى بالصدق والانصاف والاعجاب -

وطبع كتابه الاول مرة فى ١٨٨٨م ثم اعيد طبعه فى ١٩٠٨م وأخيرا أعادت مكتبة الخياط ببيروت طبعه مصورا فى ١٩٦٦م ولقد اقتبس لين پول اقتباسات طويلة من كتاب نولس "Knolles"، القديم المذكور فيما سبق، والذي لم يعجب "Gibbon"، كما أنه عرض نظم العثمانيين فى فصول خاصة فهو من أحسن الكتب فى الموضوع مع بعض التحفظات -

وأما الكتاب الاخر الشهير أي The Foundation of the Ottoman Empire

بقلم H. A. Gibbons فهو من اسوأ الكتب في موضوع التاريخ العثماني في قرنه الاول وأفحشها أخطاء وتحاملا وتشويها لتاريخ الاتراك العثمانيين ولطالما ضل المؤلفون الغربيون والشرقيون فيما كتبوه عن اسلام العثمانيين وفتوحاتهم الاولى لاعتمادهم على هذا المؤلف المتعصب الذي لم يكده يعرف اية لغة شرقية ، ومن بين هؤلاء الدكتور محمد انيس ، و عبدالكريم غرايه و J. B. Glubb (Pasha), M. P. Price فيما كتبوه في الموضوع في مؤلفاتهم -

وتكفل العلامة التركي الراحل محمد فؤاد كويريلي نقد هذا المؤلف ونظرياته الخاطئة المضللة في كتابه "قيام الدولة العثمانية"، الذي سبق ذكره . . فتبخرت أوهام جنبز وضلالاته واقتراعاته من بعد ذلك لدى المنصفين الواعين من مؤرخي الشرق والغرب . . ولم يبق لكتاب جنبز (Gibbons) قيمة وسكالة -

وأما في النظم السياسية والادارية والقضائية، والحركات الصوفية الدينية والتعليم في الدولة العثمانية فأحسن ما ألف فيه مؤخرا هو كتاب Islamic Society H. Bowen and H. A. R. Gibb تأليف 2. Vols. London, West) وهما متخصصان في تاريخ الاتراك العثمانيين ولهما اطلاع واسع (60 - 1950) على مصادر تركية اصيلة وغربية مختلفة -

وأما في الشعر العثماني التركي فما زال كتاب A. History of the Ottoman Poetry في ست مجلدات بقلم E. W. Gibb يعتبر مرجعا رئيسيا في الموضوع في اللغات الاجنبية -

في الالمانية : وظهرت اوسع دراسات عن التاريخ العثماني في اللغة الالمانية من بين اللغات الاوربية، وذلك في القرن التاسع عشر وبداية هذا القرن . . وعلى

رأسها وأشهرها تاريخ العالم النمساوى هامر (J. F. Von Hammer - Purgstall) المسمى Geschichte des Osmanischen Reiches وطبع فى بودابست بين ١٨٢٨- ١٨٣٥ م ثم اعيد طبعه فى ٤ مجلدات فى سنوات ١٨٣٤ - ١٨٣٦ م كما انه ترجم بعد ذلك مباشرة الى الفرنسية و طبع فى ١٨ مجلدا فى ١٨٣٥ - ١٨٤٣ كما ترجم الى اللغة التركية -

واصبح هذا السفر الضخم الذى استغرق مجهود ٣٠ سنة مرجعا رئيسيا لكل من كتب من الاوربيين عن الدولة العثمانية منذ صدوره . . وقف هامر فى هذا الكتاب الى سنة ١٧٧٤ م اى معاهدة كجك قينارجه مع روسيا التى اظهرت ضعف الدولة العثمانية أمام قوة روسيا الصاعدة . . كان هامر يعرف اللغة التركية كما كان يعرف لغات شرقية أخرى، واعتمد فى كتابه على اشهر التواريخ التركية ولكن لم يتيسر له الاطلاع على بعض المصادر القديمة التركية التى كانت لاتزال آنذاك مخطوطة وغير معروفة، ولم تنشر الا بعض طبع كتاب هامر أو فى بداية هذا القرن كما ذكره المرحوم محمد فؤاد كوپرلى فى كتابه المذكور سابقا . . ولم يخل كتاب هامر من التحامل على العثمانيين والتعصب ضدهم، وذلك لتأثير المصادر البيزنطية واللاتينية القديمة على الفكر الاوربى -

ولقد حفظ لنا كرىزى الانجليزى خلاصة هذا الكتاب فى تاريخه المذكور والذى استفدنا منه كثيرا فى كتابنا "تاريخ الدولة العثمانية و حضارتها، -

وافرد مؤلف المانى آخر J. W. Zinkeisen كتابا ضخما فى تاريخ الحكم العثمانى فى اوربا بعنوان Geschichte des Osmanischen Reiches in Europa فى ٧ مجلدات و طبع فى هاسبورج فى ١٨٤٠ - ١٨٦٣ م و ثالث هذه المراجع الالمانية

كتاب N. Jorga تاريخ الدولة العثمانية بنفس عنوان كتاب هامر ، وهو في مجلدات و طبع في غوتا (بالمانية) في ١٩٠٨ - ١٩١٣ -

في الفرنسية : وأما الفرنسية فتمت عدد وفير فيها من المؤلفات عن الدولة العثمانية، منذ أقدم عصورها الى سقوطها، وذلك للعلاقات السياسية الودية التي قاست بين الطرفين منذ القرن السادس عشر في عهد السلطان سليمان القانوني، وألف فيها بين سنوات ١٤٨٠ - ١٦٠٩ م أكثر من ثمانين كتابا عنها كما تقدم ذكره و أفرد أحد المؤلفين الفرنسيين القداسي G. Guillet كتابا في حكم السلطان محمد الثاني (الفاتح) بعنوان Histiire du regne de Mahomet II و طبع هذا الكتاب في ١٦٨١ م واشهر المؤلفات الفرنسية في الموضوع وأكثرها افادة كتاب Tableau General de l'Empire Ottoman, 7 Vols لمؤلفه دوسون الروماني الاصل D'Ohsson و طبع هذا الكتاب بين سنوات ١٧٨٨ - ١٨٢٤ م كما ألف Jonquiere في القرن التاسع عشر تاريخه Histoire de l'Empire Ottoman في مجلدين و طبع مرة ثالثة في ١٩١٤ م كما ألف J. Young أوسع كتاب في موضوع القوانين العثمانية بعنوان Corps de droit Ottoman في ٧ مجلدات طبع في أكسفورد (١٩٠٥ - ١٩٠٦ م) (١) -

(١) وانظر للمراجع التركية الحديثة والغربية ، فهرس المراجع المختارة في كتاب The Emergence of Modern Turkey by Prof. Bernard Lewis, pp. 489-509 وكتاب A Guid to Turkish Area Study, by T. K. Birge. (Washington 1949)